مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الاحتلال الإسباني لجزيرة بادس خلال العصر الحديث
السياق والتداعيات

د. عمر اشهبار
دكتوراه في التاريخ الحديث
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
شفشاون – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتناول هذا المقال الاحتلال الإسباني لجزيرة بادس في منطقة الريف الأوسط بالمغرب، ومحاولة تقديم بعض المعطيات عن المقاومة المغربية لتحرير هذه الجزيرة المتوسطية، وإبراز تداعيات احتلال بادس على الأوضاع في المنطقة. ويروم المقال أساسًا إلى التعريف بجزيرة بادس المغربية، وإبراز أدوارها التاريخية، باعتبارها حلقة للتواصل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ونافذة لعلاقات المغرب التجارية مع العديد من البلدان، خاصةً في أواخر العصر الوسيط وبداية العصر الحديث. ويكشف المقال عن السياق التاريخي لاحتلال جزيرة بادس من قبل إسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي، والأسباب المتحكمة في ذلك. فضلاً عن تبيان موقف المغاربة من احتلال جزيرتهم، إذ اندلعت شرارة المقاومة، والعمل على منع محاولات الإسبان التوغل في المناطق الداخلية. كما يروم المقال كذلك إلى إبراز نتائج وتداعيات احتلال جزيرة بادس على الأوضاع في ساحل منطقة الريف بالمغرب. وقد تم تناول الموضوع اعتمادًا على بعض المصادر والمراجع، خاصةً الأجنبية، نظرًا لغياب المعطيات الكافية حول الموضوع في المصادر المغربية والعربية، وقد تم توخي الحذر في التعامل مع المادة المصدرية، نظرًا لحساسية الموضوع في الماضي والحاضر. ولم يتم الاكتفاء بسرد النصوص، بل تم تمحيصها، والتمعن في مضامينها، للخروج بنتائج واستنتاجات أساسية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٨ نوفمبر ٢٠٢٠
تاريخ قبول النشر: ٢١ ديسمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

بادس؛ جزيرة؛ احتلال؛ مقاومة؛ إسبانيا؛ الريف؛ تاريخ الجزر المتوسطية المغربية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.222642

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عمر اشهبار. "الاحتلال الإسباني لجزيرة بادس خلال العصر الحديث: السياق والتداعيات".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٥١ – ١٦٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: omar_achahbar@hotmail.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورية كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةُ

اشتد التنافس الإيبيري حول السواحل المغربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وتمكن الإيبيريون من احتلال مجموعة من الثغور المغربية، لتتجه الأطماع نحو الهيمنة على الجزر المتوسطية الصغيرة التي تعود جغرافيا وتاريخيا للمغرب، خاصة جزيرة بادس في منطقة الريف الأوسط، وقد تحقق هدف الإسبان في احتلال جزيرة بادس خلال القرن السادس عشر الميلادي.

يكتسي البحث في تاريخ جزيرة بادس المغربية المحتلة أهمية تاريخية كبيرة، فالموضوع له راهنية في الحاضر وامتدادات في المستقبل، لارتباطه بضرورة استرجاع المغرب لجزره المتوسطية المحتلة واستكمال وحدته الترابية. وقد ركزنا أساسا في هذا المقال على التعريف بجزيرة بادس المحتلة، وإبراز أهميتها وأدوارها في تاريخ المغرب، وتبيان السياق العام لاحتلالها من قبل الإسبان سنة ١٥٠٨م، والعوامل المتحكمة في الاحتلال، وردود الفعل التي نتجت عن ذلك، والمتمثلة في المقاومة المغربية لاسترجاع جزيرة بادس. مثلما تم الحديث عن أهم التطورات والأوضاع في المنطقة بعد تحرير بادس سنة ١٥٢٢م، إذ استمرت الأطماع الإسبانية في العودة إلى احتلال الجزيرة، كما برزت في الفترة نفسها أطماع الأتراك العثمانيين للتمركز بجزيرة بادس، حيث تمكن الأتراك من التمركز في جزيرة بادس سنة ١٥٥٤م، لكن بعد عشر سنوات فقط سقطت الجزيرة، مرة أخرى، بيد الإسبان بعد تسخير إمكانيات هائلة. وكان لهذا الاحتلال الأخير تداعيات على تطور الأوضاع في المنطقة وردود فعل قوية، حيث تنامت شرارة المقاومة من جديد لتحرير جزيرة بادس، ومنع محاولات الإسبان من التوغل في المناطق الداخلية.

ويحتم البحث في تاريخ جزيرة بادس ضرورة الرجوع إلى المصادر والوثائق الأجنبية، خاصةً الإسبانية، نظرًا لكون المادة المصدرية المغربية لم تف الموضوع حقه.

أولاً: الأهمية التاريخية لجزيرة بادس

تقع جزيرة بادس عند نقطة اتصال تراب قبيلتي بقوية وبني يطوفت، على البحر الأبيض المتوسط، وهي جزيرة صخرية طولها زهاء مائتين وخمسة وعشرين مترًا، وعرضها زهاء مائة وعشرة أمتار، أما علوها فيصل إلى سبعة وسبعين مترًا[1]. وتبعد جزيرة بادس عن مدينة الحسيمة الحالية بنحو خمسة وأربعين كيلومترًا كلم بحرًا، وعن مدينة تطاوين بنحو مائة وعشرة كيلومترات بحرًا، ولم تكن هذه الجزيرة تبعد كثيرًا عن الساحل المقابل لها، لكنها التقت مع البر منذ سنة ١٩٣٣م، فصارت شبه جزيرة. يتوسط بين الجزيرة ومدينة بادس التاريخية شاطئ طوله أكثر من سبعمائة متر. وتشرف على الجزيرة قمتان من الساحل المجاور، عرفتا في المصادر التاريخية بقمة بابا في جهة الشرق، وقمة القنديل في جهة الغرب. ومن المواقع الدفاعية المرتبطة تاريخيا ببادس نذكر مرسى يليش وقلعة صنهاجة.

ساهم مرسى جزيرة بادس في انفتاح منطقة الريف على مختلف المراسي المغربية وفي انفتاح المغرب على العالم المتوسطي، خاصة في أواخر العصر الوسيط، فقد كانت جزيرة بادس ميناء فاس بدون منازع في العهد المريني[2]. وصارت بادس ميناء تجاريًا كبيرًا، حيث اتخذها المغاربة ميناء للتصدير والاستيراد[3]. كما كانت قاعدة عسكرية مهمة، تصنع فيها مختلف أنواع السفن. وقد ظل مرسى جزيرة بادس لزمن طويل صلة وصل لربط العلاقات الاقتصادية والحضارية مع الأندلس ومختلف بلدان العالم المتوسطي مثل إسبانيا وإيطاليا ومصر والجزائر. وقد ظلت جزيرة بادس ومرساها هدفا للهجمات البحرية الأوربية نظرًا لأهميتهما الاستراتيجية في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ثانيًا: السياق التاريخي للاحتلال الإسباني الأول لجزيرة بادس

تأرجحت الأوضاع الداخلية بالمغرب خلال نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث بين الاستقرار والتدهور، ووجود سلطة مركزية ضعيفة غير قادرة على توحيد البلاد والتصدي للأطماع الأجنبية، مما ساهم في تفاقم الأزمات على مختلف المستويات، وتنامي الأخطار الخارجية المتمثلة أساسًا في الاحتلال الإيبيري للعديد من الثغور المغربية، ومنها ثغور ساحل الريف. ومن المعلوم أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي قد تنامى التنافس الإيبيري حول السواحل المغربية، فقد تمكن الإيبيريون من غزو مدن سبتة ومليلة وغساسة في الساحل الريفي، وعدة مراكز أخرى على الواجهة الأطلنتية. كما استطاع الإسبان التسرب إلى جزيرة بادس، وكان ذلك استمرارًا للحملات التي قادتها قشتالة في ساحل الريف الشرقي.

وبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، آخر معقل للإسلام في الأندلس، بناءً على الاتفاقية المبرمة بين الملك ابن الأحمر والملكة القشتالية إيسابيلا الكاثوليكية، تنامت الحملات

الإيبيرية ضد السواحل المغربية. ولم تخل السياسة الإيبيرية البرتغالية والإسبانية، لاحتلال السواحل المغربية المتوسطية والأطلسية، من إثارة الخلافات المتولدة عن التنافس على حيازة أكثر المناطق عددًا وأفضلها من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية، حيث تم إبرام بعض الاتفاقيات بين البرتغال وإسبانيا لمعالجة الخلافات بينهما، مثل معاهدة توردیسیاس سنة ١٤٩٤[٤]، وكان يتم توقيع هذه الاتفاقيات بإشراف مباشر من البابوية الإيطالية.

أما فيما يخص الأوضاع في حوز بادس خلال أواخر القرن الخامس عشر ومستهل القرن السادس عشر فإننا نشير إلى أن المنطقة خلال هذه الفترة قد صارت من جملة سيادة الدولة الوطاسية تحت حكم محمد الشيخ الوطاسي (١٤٧١م-١٥٠٤م). كما تحولت بادس إلى قوة بحرية لا يستهان بها، خاصة بعد سقوط غرناطة، حيث زادت الاصطدامات بين الإيبيريين وسكان قبائل ساحل الريف، فقد كان الريفيون يعبرون إلى الساحل الأندلسي للقيام بالعمليات الجهادية انطلاقا من جزيرة بادس[٥].

ثالثًا: الاحتلال الأول لجزيرة بادس

نعتقد بأن فكرة الاستيلاء على جزيرة بادس والمدينة المقابلة لها، لم تكن وليدة سنة ١٥٠٨م، بل إن تلك الفكرة انطلقت على الأقل منذ سنة ١٤٩٣م، حيث توصلت الحكومة الإسبانية بأخبار المنطقة أثناء الجولات الاستطلاعية التي قام بها بعض رؤساء البحرية الإسبانية[٦]. نظم الملك القشتالي فرناندو الكاثوليكي حملة خصص لها أسطولا بحريا يتكون من عشرين سفينة تحمل على ظهرها خمسة آلاف مقاتل تحت قيادة الأميرال بيدرو نافارو[٧]. وقد حلت ببادس صبيحة يوم الأحد ٢٣ يونيو ١٥٠٨م. ويظهر أن الإسبان قد فاجأوا أهالي بادس بالنزول إلى الشاطئ بعد قصفهم بالمدفعية من السفن الحربية الراسية قبالة المدينة[٨].

استطاع الإسبان الاستيلاء على جزيرة بادس بسهولة، وقد أسهم عنصر المفاجأة في هذا الاحتلال السهل، خاصة أن حاكم بادس خلال هذه الفترة، مولاي منصور، لم يكن موجودا في المنطقة أثناء التسرب الإسباني[٩]. بعدما تكمن بيدرو نافارو من احتلال الجزيرة ترك فيها مجموعة من الجنود، وزودهم بالذخيرة الحربية، وقامت الحاميات الإسبانية بتحصين الجزيرة، وذلك ببناء الأسوار والقلع والأبراج، ونصب المدافع لحمايتها من أي هجوم مرتقب من قبل المجاهدين الريفيين[١٠].

احتجت البرتغال على احتلال الإسبان لجزيرة بادس، وكاد ذلك أن يؤدي إلى مواجهة حربية بين الدولتين لولا تدخل البابا والتوقيع على معاهدة سينترا سنة ١٥٠٩م، والتي بموجبها تخلت البرتغال للإسبان عن بادس والأراضي المجاورة لها حتى غساسة ومليلة، بينما سمح الإسبان للبرتغال بالتوسع في سواحل المغرب الممتدة من بادس حتى بوجدور وواد نون. ولم يكن هذا الاتفاق سوى تأكيد للأهداف التوسعية والاستراتيجية والاقتصادية التي سعت إسبانيا إلى تحقيقها بالساحل الريفي، حيث لا تخفى جملة الأضرار المترتبة عن احتلال الإسبان لجزيرة بادس، وأهم تلك الأضرار تراجع النشاط البحري الذي كان أساس النشاط الاقتصادي في ساحل منطقة الريف الأوسط. ادعت إسبانيا أن "القرصنة" هي السبب من وراء حملتها ضد بادس، لكن البحث في العوامل والأهداف الحقيقية يكشف لنا أن إسبانيا كانت مؤمنة بالروح الصليبية، فضلا عن وعيها بالأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لجزيرة بادس والمناطق المقابلة لها.

رابعًا: تحرير جزيرة بادس

دام الاحتلال الإسباني الأول لجزيرة بادس أربع عشرة سنة، وخلال هذه المدة استمر الزحف الإيبيري على السواحل المغربية، وقد اندلعت شرارة المقاومة المحلية لاسترجاع جزيرة بادس، ولن يتأتى ذلك إلا في سنة ١٥٢٢م، حيث نجح المغاربة في استعادة بادس إلى حضن الوطن. تولى شؤون المقاومة بحوز بادس أحد قواد بني وطاس، يدعى المولى منصور[١١]، وقد كلف هذا الأخير من قبل محمد البرتغالي بتنظيم شؤون الجهاد والعمل على استرجاع الجزيرة. وقد تميزت استعدادات مولاي منصور بتنظيم المواقع حسب ما تفرضه العوائق الطبيعية المحيطة بالجزيرة، فقد عبأ السكان لبناء برجين الأول على قمة القنديل والثاني على قمة بابا، وشيد برج آخر بحاضرة بادس. إلا أن المولى منصور فشل في استرجاع جزيرة بادس، نظرا لتفوق السلاح الناري الإسباني[١٢].

وقد استمرت المحاولات المغربية لتحرير جزيرة بادس، حيث أسندت مهمة قيادة المقاومة للمولى محمد، وهو ابن عم المولى منصور، وتم استغلال قرب المسافة بين الجزيرة والشاطئ لشن هجومات على الحامية الإسبانية ببادس، فقد كانت تحدث مناوشات يومية بين الجانبين، وتمكن المغاربة مثلاً في سنة ١٥١٣م من قتل عدد من الإسبان، وإلحاق خسارة في العتاد الإسباني[١٣]. وتعرضت جزيرة بادس لهجومات من قبل الأتراك، مثل الهجوم الذي تم شنه سنة ١٥١٥م، كما قام الأتراك

بفرض حصار على الجزيرة سنة ١٥١٦م، وألحقوا بها عدة أضرار مادية، إذ فقد الإسبان بعض البواخر. وقد توصلت إسبانيا في شهر ماي سنة ١٥١٧م بمعلومات حول وجود اتصالات بين ملوك فاس وتلمسان وتونس وحاكم بادس والقائد التركي باربروس، للقيام بهجوم على الجزيرة. وفعلاً حدث ذلك، حيث تم فرض حصار آخر على بادس دام خمسة عشر يومًا[١٤].

ظل خطر المقاومة المغربية على الإسبان مستمرًا، سواء عن طريق الهجومات البحرية، أو عن طريق الهجومات التي كانت تنطلق من مدينة بادس[١٥]، لكن رغم استماتة هذه المقاومة فقد استمر الوجود الإسباني على جزيرة بادس، ففكر المغاربة في أسلوب آخر لاسترجاع جزيرتهم. لجأ المغاربة إلى الحيلة لتحرير جزيرة بادس، حيث عمد المولى محمد إلى السيطرة على الجزيرة من الداخل، عن طريق الدخول إلى أعلى الحصن بطرق سلمية، ثم التخطيط لقتل حاكم الجزيرة. فكانت بعض المحاولات لتنفيذ هذه الخطة، مثل المحاولة التي قام بها اثنا عشر مغربيا في منتصف أكتوبر ١٥٢٠م، وقد تمكن هؤلاء من السيطرة على الجزيرة في هجوم مباغت[١٦]، إلا أن المساعدة التي بعثت بها مالقة وجبل طارق أفشلت المحاولة يوم ٢٩ نونبر من السنة نفسها[١٧]. وفي يوم ١٠ دجنبر ١٥٢٢م استطاع المغاربة التسلل إلى جزيرة بادس وتنفيذ مؤامرة اغتيال حاكم الجزيرة[١٨]، وبالتالي توجت محاولات المغاربة لتحرير جزيرتهم بالنجاح.

كان استرجاع جزيرة بادس إلى حضن الوطن أول انتصار مغربي في عهد الدولة الوطاسية، وزاد ذلك من حماس سكان المناطق المجاورة لباقي الثغور المغربية المحتلة، وحفزهم على المقاومة والجهاد لاسترجاع الثغور المغتصبة، وقد نجح المغاربة في استرجاع غساسة سنة ١٥٣٢م. عادت الحياة إلى مجراها السابق بعد تحرير جزيرة بادس، لكن بحذر ملحوظ، حيث كان المغاربة لا يستبعدون عودة الإسبان نظرا للخسارة الجسيمة التي منوا بها، لذلك تم الاهتمام بتحصين الجزيرة[١٩]، ووضع مجموعة من الطلائع والمحارس على الجزيرة والمرتفعات المحيطة بها، وقد كان المغاربة قد غنموا بعد تحريرهم لبادس مجموعة من الأسلحة النارية، وبفضل هذه الأسلحة أصبح حصن الجزيرة قويًا.

سعى الإسبان إلى إعادة احتلال جزيرة بادس، فقاموا بعدة محاولات لتحقيق هذا الهدف، نذكر منها المحاولة التي فشلت بسبب يقظة الحراسة المغربية سنة ١٥٢٥م[٢٠]. وفي سنة ١٥٢٧م قام الإسبان بحملة أخرى ضد بادس، حيث قاموا بتوجيه هجوم بحري من مدينة مالقة لاحتلال الجزيرة، وشارك في هذا الهجوم أربعون باخرة وألف وخمسمائة جندي، لكن المقاومة المغربية أجبرت الإسبان على التراجع[٢١]. أتاح استرجاع المغرب لجزيرة بادس استمتاع السكان بالحرية في حاضرة بادس، المقابلة للجزيرة، لمدة اثنتين وأربعين سنة، حيث استمر وجود حاضرة بادس بعد الاحتلال الإسباني الأول للجزيرة. وإذا كانت الأطماع الإسبانية قد فشلت خلال هذه الفترة (١٥٢٢م- ١٥٦٤م)، فذلك راجع إلى العناية الحربية الدفاعية التي حضيت بها بادس وجزيرتها على يد علي بن محمد الشيخ، المعروف بأبي حسون الوطاسي، نتيجة الاستقلال بإمارتها منذ سنة ١٥٣٢م، على الأقل[٢٢].

عمل أبو حسون الوطاسي على تعزيز وضعية بادس الدفاعية، حيث أحدث تحصينات ومواقع دفاعية جديدة، واستطاع الحفاظ على ولاء سكان حوز بادس لمدة طويلة، وخلال هذه الفترة تراجعت الدولة الوطاسية، وتنامت الأطماع الأجنبية لاحتلال جزيرة ببادس. كما صار السعديون يشكلون خطرا على استمرار حكم أبي حسون في بادس، ففي عام ١٥٤٧م أرسل سلطان فاس محمد الشيخ السعدي جيشا كبيرا لاسترجاع جزيرة بادس من أبي حسون، لكن هذا الأخير استطاع التصدي للسعديين. أمام الخطر الذي أصبح يهدد حوز بادس، بعد دخول محمد الشيخ السعدي إلى فاس سنة ١٥٤٩م، وتنحية أحمد الوطاسي عنها، بدأ أبو حسون يكثف من اتصالاته مع الأجانب الإسبان والبرتغاليين والأتراك، والتجأ إلى هؤلاء الأجانب طالبا المساعدة منهم ضد السعديين. ليبدأ فصل آخر من فصول تطور الأوضاع بجزيرة بادس وحوزها، تميز بتنامي الصراع الإيبيري العثماني حولها.

خامسًا: تمركز الأتراك في جزيرة بادس وعودة الإسبان إلى احتلالها من جديد

بدأت أطماع الأتراك في التسرب إلى جزيرة بادس منذ الاحتلال الإسباني الأول للجزيرة سنة ١٥٠٨م، لكنهم لم يحققوا ذلك إلا في سنة ١٥٥٤م، وسيطروا على جزيرة بادس بعد هزيمة حسن بن خير الدين أمام السعديين وفراره إلى بادس[٢٣]. وقد تمكن الأتراك من الوصول إلى الجزيرة بسهولة بفضل السفن التي جاءت من سبخة قلعية ومرسى غساسة. وكان هذا التسرب طبقا للشروط التي اشترطها الأتراك على أبي حسون[٢٤]. شكل استقرار الأتراك بجزيرة بادس ضربة قوية للإسبان وللدولة السعدية، فهذا الاستقرار كانت له تداعيات سلبية على النشاط الإسباني بحوض البحر الأبيض المتوسط،

حيث اتخذ الأتراك من بادس مقرا لهجوماتهم على سواحل الأندلس[٢٥].

سعت إسبانيا إلى إعادة احتلال جزيرة بادس، ووضع حد للوجود التركي بالمنطقة. أما السعديون فقد رأوا في الوجود التركي ببادس تهديدا لدولتهم، خاصة أن العثمانيين ما فتئوا يهددون باكتساح كل بلاد المغرب، لكنهم فشلوا في تحقيق ذلك. ولعل من بين أهم أسباب فشل الأتراك في بسط سيطرتهم على المغرب هو التقارب بين السعديين والإسبان لمواجهة الخطر العثماني، وقد كان للسلطان عبد الله الغالب دور في توطيد العلاقات مع الإسبان بهدف انهاء الوجود التركي بجزيرة بادس. قام الإسبان بمحاولة أخرى لاحتلال جزيرة بادس سنة ١٥٦٣م، حيث خرجت السفن الإسبانية يوم ٢٣ يوليوز ١٥٦٣م من مالقة في اتجاه جزيرة البرهان، الواقعة بعرض مياه مليلة، للاتصال بحاكم هذه المدينة، وهو مدبر الحملة، ومن هناك توجه الأسطول نحو بادس[٢٦]. كما نزلت قوات إسبانية أخرى مؤلفة من أربعة آلاف رجل بقلعة صنهاجة، وتوجهت منها إلى جزيرة بادس[٢٧].

أخفق الإسبان خلال هذه الحملة في إعادة احتلال جزيرة بادس بفضل التخطيط المحكم للمقاومة المغربية، **و**مباغتة الأسطول والجنود الإسبان النازلين على البر في اتجاه مدينة بادس وجزيرتها، مما كان له تأثير عميق في إسبانيا. وبدأت الاستعدادات الإسبانية على نطاق واسع لغزو الجزيرة مرة أخرى، حيث بحثت إسبانيا عن حلفاء جدد، وكثفت من المراسلات الرسمية الموجهة إلى مدن إيطاليا ولشبونة وعدة جهات أخرى. وقد ظلت إسبانيا تستغل الوجود التركي بجزيرة بادس لإضفاء الشرعية على رغبتها في الاستيلاء على بادس، وبالفعل تمكنت من ذلك سنة ١٥٦٤م.

سخرت إسبانيا إمكانيات مادية وبشرية كبيرة لإعادة احتلال جزيرة بادس، ونكتفي بالإشارة إلى بعض ما ورد في تقرير رسمي صادر عن الحكومة الإسبانية بتاريخ ٥ شتنبر١٥٦٤م، حيث أشار هذا التقرير إلى مشاركة ثلاثين سفينة كبيرة وستين متوسطة في الحملة الإسبانية. أما عدد الجنود فقد تحدث التقرير عن مشاركة زهاء ثلاثة عشر ألف من الجنود الإسبان، وألف ومائتي جندي برتغالي، وخمسمائة فارس تابعين للقديس خوان المسيحية[٢٨]. صمدت المقاومة المغربية ضد الحملة الكبيرة التي قادتها إسبانيا لإعادة احتلال جزيرة بادس، وآخر الإشارات التي تهم المقاومة المغربية قبل السيطرة النهائية للإسبان على الجزيرة تشير إلى أن أربعمائة من الجنود المغاربة حاولوا مواجهة زحف الإسبان، لكن وجود عدد كبير من الجنود الإسبان، والجنود الآخرين الذين شاركوا في هذه الحملة، وتفوقهم على مستوى العتاد، حال دون صمود المقاومة المغربية[٢٩].

بادر الإسبان إلى حماية المواقع المهيمنة على جزيرة بادس، لتفادي هجومات المغاربة، وتمكنوا من السيطرة على السفوح المحيطة بالجزيرة، فاشتغل رجال المقاومة المغربية لفك الحصار المضروب على المواقع المحيطة بالجزيرة، ولكن لم يصلوا إلى المواقع الحيوية الإسبانية، وبذلك غدت الجزيرة محاصرة حصارا فعليا، مما أدى إلى استسلام من تبقى من الحامية التركية على الصخرة يوم ٦٠ شتنبر ١٥٦٤م[٣٠]. سعت إسبانيا بالاحتلال الأخير لجزيرة بادس إلى استكمال مخططها التوسعي في الساحل الريفي، وتحقيق مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية، وزادت خطورة الوجود الإسباني عند التوغل إلى ساحل مدينة بادس لاحتلال برج الساحل الفاصل بين الجزيرة والمدينة، حيث احتل الإسبان هذا البرج يوم ٢ شتنبر ١٥٦٤م. وقد تم استغلال برج الساحل في الحراسة وفي عمليات القصف[٣١]. كما حاول الإسبان التوغل نحو مدينة بادس، إلا أن المقاومة المغربية أرغمت الإسبان على التراجع من المدينة، ويبدو من خلال الرسم أسفله أن المدينة كانت ما تزال قائمة ومحاطة بأسوارها ومحتفظة بمبانيها.

استطاعت إسبانيا إعادة احتلال جزيرة بادس سنة ١٥٦٤م، ولم تكن العملية سهلة، فبالرغم من الإمكانيات الضخمة التي اعتمدتها إسبانيا وحلفاؤها، إلا أنها لم تتمكن من السيطرة على الجزيرة إلا بعد عدة أيام. قام الإسبان الغزاة بإحكام قبضتهم على الجزيرة والتمركز في برج الساحل الذي تم بناؤه خلال فترة التحرير السابقة، وذلك بهدف محاصرة الجزيرة بحرًا وبرًا. وقد ترك الغزاة على الجزيرة حامية تألفت من ثلاثمائة إسباني وعدد من المهندسين والبنائين الذين سيتكلفون بتشييد التحصينات الدفاعية على الجزيرة، كما تركوا في الجزيرة عددًا كبيرًا من المدفعية[٣٢].

جاء في رسالة بعثها رئيس البعثة الإنجليزية طوماس تشالونار إلى الملكة إليزابيث بعد احتلال جزيرة بادس ما يلي: "وأخيرا فإن السعي الذي ظل طويلا في طي الكتمان حول أعظم حشد للسفن قد أسفر عن الوجهة التي كان غالب الناس يتحدثون عنها، بحرز وتخمين، فإنه ما حل اليوم السابع من الشهر الحالي حتى تبين أنهم وصلوا إلى حجر بادس بيوم قبله فقط، وحجر بادس عبارة عن صخرة عظيمة تبدو على مرمى

البصر من شاطئ بلاد البربر، ولها أهمية عظيمة بالنسبة إلى هذه البلاد، وهي واقعة غير بعيدة من جبل طارق"[٣٣].

سادسًا: تداعيات الاحتلال الأخير لجزيرة بادس واستمرار المقاومة المغربية لتحريرها

قبل الحديث عن تداعيات الاحتلال الأخير لجزيرة بادس ورد فعل المغاربة لابد من الإشارة إلى موضوع مرتبط باحتلال بادس سنة ١٥٦٤م، وهو الحديث عن تسليم السلطان السعدي عبد الله الغالب جزيرة بادس للإسبان مقابل أن يقوم هؤلاء بطرد الأتراك من تلك الجزيرة، فقد وقع اختلاف بشأن هذا الموضوع، حيث انقسم المؤرخون والباحثون إلى فريقين: فريق لا يستبعد أن يكون عبد الله الغالب قد تنازل عن جزيرة بادس للإسبان، وفريق آخر يرفض أن يكون السلطان عبد الله الغالب قد سلم الجزيرة.

عدنا إلى مختلف المصادر والمراجع التي تطرقت إلى قضية التنازل عن جزيرة بادس من عدمه، وقد تبين لنا غياب الحجج التاريخية المقنعة للقول إن عبد الله الغالب قد سلم جزيرة بادس للإسبان، فليست هناك أي وثيقة تثبت هذه التهمة المنسوبة للسلطان السعدي، إذ لم نجد في جميع النصوص التي اطلعنا عليها، خاصة الإسبانية، المتعلقة بحيثيات الاحتلال الأخير إلى جزيرة بادس، ما يثبت تخاذل عبد الله الغالب وتنازله عن بادس[٣٤]. ولا بد من الإشارة إلى أن جل من تبنوا الرأي القائل بتسليم جزيرة بادس للإسبان قد نقلوا ذلك عن المؤرخ المجهول[٣٥] المعروف بالعداء الذي كان يكنه للدولة السعدية.

كان احتلال جزيرة بادس العامل الأساسي في اندثار حاضرة بادس التاريخية، حيث اضطر السكان إلى مغادرتها بدون رجعة، وتعرض عمرانها للتخريب، حيث صارت عرضة للقصف من قبل الإسبان المحتلين لجزيرتها، لتظل منذ ذلك الوقت خرابًا. وامتد أثر الاحتلال إلى جميع المواقع التي كانت بمثابة شرايين الحياة لحاضرة بادس، مثل مرسى قلعة صنهاجة، ومرسى يليش. كان للاحتلال الأخير لجزيرة بادس تداعيات مباشرة على تطور الأوضاع في قبائل ساحل الريف، خاصة على النشاط الاقتصادي البحري الذي كان يعتمد عليه السكان في حياتهم المعيشية. وقد أنزل احتلال الإسبان للجزيرة البادسية ضربة قاصمة بالبحرية المغربية التي كانت تقف بالمرصاد لأساطيل الغزاة المسيحيين، لاسيما وقد تبع ذلك إقدام إسبانيا على مهاجمة القوات البحرية في تطاوين خلال نونبر من سنة ١٥٦٤م نفسها، وقيامها بإغلاق مصب نهر تطاوين[٣٦].

خلف ضياع بادس أصداء مفجعة ترددت عبر جوانب المغرب كافة، فمرسى بادس كان آخر ميناء تحت السيادة المغربية على السواحل المتوسطية، ومع فقدان هذا الثغر انغلقت أبواب البحر المتوسط على المغرب[٣٧]. برزت خلال السنوات الأولى بعد احتلال الجزيرة بعض أشكال المقاومة لتحرير الجزيرة، لكن عموما يمكن القول إنه سادت في البداية حالة من الهدنة بين المغاربة والإسبان، حيث كان الجانب المغربي يسعى إلى إفشال الأطماع الإسبانية للتوغل في المناطق الداخلية، فقد تيقن المغاربة من صعوبة زحزحة الوجود الإسباني من الجزيرة، وتقرر الاكتفاء بمراقبة الميدان الخارجي عن طريق إحداث مركز قار للمراقبة يتمثل في إقامة قصبة تلا بادس.

وبعد الهدنة التي تلت الاحتلال الأخير لجزيرة بادس برزت مرة أخرى المقاومة المغربية لتحرير برج الساحل والجزيرة، ففي سنة ١٦٨٠م بدأت المحاولة الأولى لاسترجاع برج الساحل[٣٨]، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل، لتليها محاولات أخرى توجت باسترجاع برج الساحل على يد القائد علي بن عبد الله الريفي سنة ١٧٠٢م[٣٩]. ومن البرج المسترجع بدأت محاولات اقتحام الجزيرة، ففي السنة نفسها حاول المغاربة التسلل إلى الجزيرة[٤٠].

يظل الحصار الذي تعرضت له جزيرة بادس من قبل المغاربة ما بين ١٧٧٤م- ١٧٧٥م أهم مظهر من مظاهر المقاومة المغربية لتحرير جزيرة بادس السليبة خلال العصر الحديث، وقد نشر المؤرخ الإسباني غارسيا فيغيراس يوميات هذا الحصار، وصاحب تلك اليوميات هو طبيب إسباني كان حاضرا بالجزيرة، اسمه أنطونيو كاردين[٤١]. وبعد رفع الحصار عن الجزيرة والفشل في تحريرها استمرت حركة المقاومة المغربية، ويكفي أن نطلع على تقرير عسكري إسباني صادر يوم ٢٢ شتنبر ١٧٩١م لمعرفة استمرار المواجهات بين السكان والجنود الإسبان في عهد المولى اليزيد[٤٢].

خَاتِمَةٌ

نؤكد في الختام على أن جزيرة بادس قامت بأدوار تاريخية مهمة جدا، لكونها كانت جسرًا للتواصل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وقد ساهمت في الإشعاع الحضاري لمنطقة الريف المغربي، ومن ثمة اكتست أهميتهما في السياسة التوسعية الإسبانية. وكانت خسارة المغرب لجزيرة بادس عنوانا لمأساة تاريخية، لما لاحتلالها من عواقب وتداعيات كبيرة. وقد حاولنا في هذا المقال إبراز جوانب من المقاومة المغربية لتحرير جزيرة بادس، خاصة المقاومة المحلية، فقد ظل المغاربة دائما بالمرصاد للتمركز الإسباني بجزيرة بادس، مما حال دون تحقيق الأطماع الإسبانية في التوغل في المناطق الداخلية.

ونؤكد كذلك على ضرورة تعميق البحث التاريخي في موضوع جزيرة بادس، وغيرها من الجزر المتوسطية المغربية المحتلة، لما لذلك من أهمية في تعزيز حقوق المغرب المشروعة في المطالبة باسترجاع هذه الجزر إلى حضن الوطن.

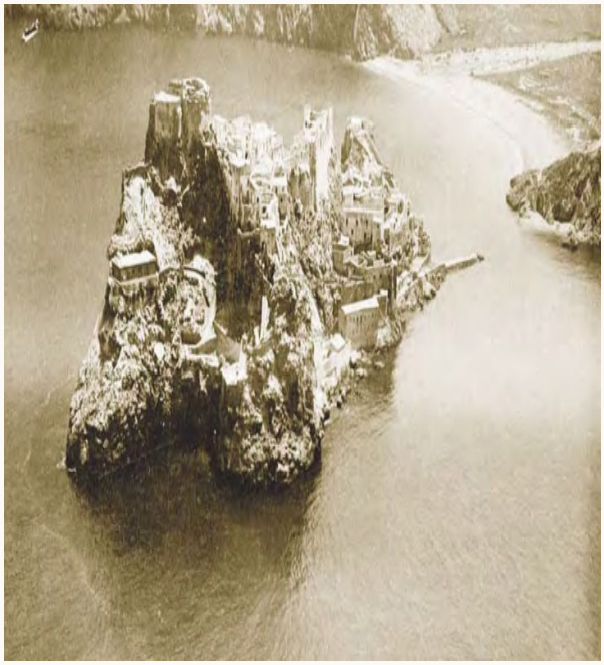

صورة رقم (٢)

جزيرة بادس قبل اتصالها بالبر[٤٣]

الملاحق

صورة رقم (١)

شبه جزيرة بادس وساحلها في الوقت الراهن

صورة رقم (٣)

رسم يوضح الإنزال الإسباني البري ومحاصرة الجزيرة من كل الجهات، كما تظهر في الرسم مدينة بادس[٤٤]

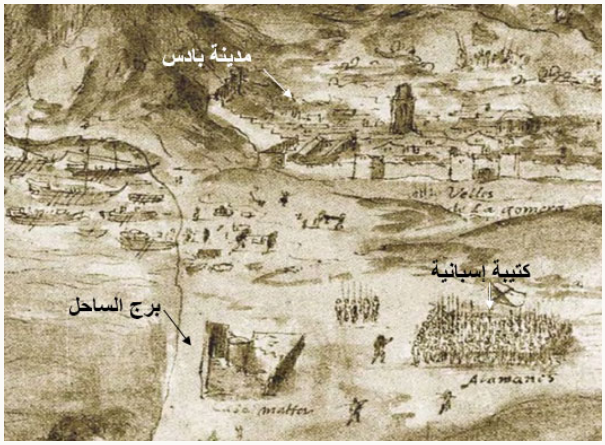

صورة رقم (٤)

محاولة الإسبان التقدم نحو مدينة بادس[٤٥]

صورة رقم (٥)

بقايا أثرية لأحد أبواب حاضرة بادس

صورة رقم (٦)

الموقع الأثري نفسه بعد ترميمه في السنوات الأخيرة

*مصدر الصور في الملاحق: أرشيف كاتب المقال ما لم يذكر غير ذلك.

الاحالات المرجعية:

(1) **Comision Historica de las Campañas de Marruecos,** Geografia de Marruecos, Protectorados y Posesiones de España en Africa**, t. 2, Madrid, 1936,** p. 297.

(٢) حليمة فرحات، مادة **"بادس"**، معلمة المغرب، نشر. مطابع سلا، الجزء ٣، سلا، ١٩٩١، ص. ٩٦٦.

(٣) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الجزء السادس، الدار البيضاء، ١٩٥٦، ص. ٢٠.

(٤) توردیسیاس مدينة إسبانية تقع على نهر ديرو الذي يصب قرب ميناء بورطو شمال غرب البرتغال.

(5) TOMAS Garcia Figueras, **Marruecos la accion de Espana en el norte de Africa**, Tetuan, 1955, p p. 62-63.

(6) la CASCA Enrique, **la Epopeya de Espana en Axdir**, Melilla, 1928, p. 24.

(٧) محمد بن عزوز حكيم، **المغرب في مواجهة الحملات الصليبية**، الطبعة الأولى، الجزء الأول، تطوان، ٢٠٠٣، ص. ١٩٣.

(8) DE LA PENA Francisco, **Lellenda del Peñon de Velez de la Gomera**, Valencia, 1846, p.144.

(9)CALINDO DE VERA Leon, **las posesiones Hispano - Africanas**, Colección Africa propia, Malaga, 1993, pp. 82-89.

(10) TOMAS Garcia Figueras, **Mescelania de estudios historicos Marroquies**, Larache, 1949, p. 31.

(١١) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة ١٤١٥ – ١٥٧٤**، أطروحة الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رسالة مرقونة، الجزء الثاني، الرباط، ١٩٨٩- ١٩٩٠، ص. ٥٨٤.

(١٢) نفسه، ص ص. ٥٨٤- ٥٨٥.

(13) Rafael Gutiérrez Cruz, «El Penon de Vélez de la Gomera 1508-1520 », El Peñón de Vélez de la Gomera, Historia, cultura y **sociedad en la Espana norte Africana,** Op.cit**,** p p. 68-69**.**

(14) **Ibid,** p. ٦٧- 69- 74 – 89.

(15) **Ibid.**

(16) **Ibid**, p. 65.

(17) Pedro SALAZAR, **Espania Victrix**, Madrid, 1570, p. 4

(١٨) يروي مارمول كاربخال تفاصيل تحرير الجزيرة، قائلا: " لما كان قد أخبر أمير بادس بأن حاكم الجزيرة يحب المال حبا جما، فإنه أرسل إليه كيماويين اقترحا عليه أن يصنعا له نقودا مزيفة تروج في المنطقة، وفي تلك الأثناء تقربا إلى حام الجزيرة فيلالوس Vilalos، وتآمرا على قتله، فأسرا بذلك إلى أمير بادس، لينجدهم في الوقت المناسب، وبينما كان فيلالوس منحنيا في إحدى شرفات البرج، فتم قتله، واستحوذا على البرج، وجميع المدفعية والذخيرة الحربية، ثم أعطيا الإشارة إلى سكان بادس الذين أتوا مسرعين واستولوا على المكان، دون أن يستطيع المسيحيون منعهم من ذلك، لأن البرج، الذي هو القلعة الرئيسية، كان محتلا من طرفهم". انظر: مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الجزء الثاني، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٢٣٣.

(١٩) مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص. ٢٣٣.

(٢٠) نفسه، ص ص. ٢٣٣ - ٢٣٤.

(21) Mariano **FERRER** BRAVO y Baltasar DE COLLAZOS, «Algunas visiones del siglo 16 hasta 1563», **El Peñón de Vélez de la Gomera, Historia, cultura y sociedad en la Espana norte Africana, Op.cit**, p. ٨٩.

(22) Archivo General de Simancas, Estado, Leg. 461. - Les sources inedites de l'histoire du Maroc. Espagne, T. 1, pp . 44.60.

(٢٣) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، مرجع سابق، ص. ١٤٠.

(٢٤) نفسه.

(25) **S.I.H.M**, Espagne, T. ٣, p. 7.

(٢٦) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، مرجع سابق، ص. ١٤٥.

(٢٧) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الطبعة الثالثة، الرباط، ٢٠٠٦، ص. ٩١.

(٢٨) أورده محمد بن تاويت، **من زوايا التاريخ المغربي، مجلة تطوان**، عدد٥، ١٩٦٠، ص. ١٢٠.

(29) Baltasar DE COLLAZOS y Chantal DE LA VERONNE, «Garcia de Toledo y la ocupacion definitive de 1564», **El Peñón de Vélez de la Gomera, Historia, cultura y sociedad en la Espana norte Africana, Op.cit**, p. 126.

(30) **A.G.S**. Estado, Leg. 445.

(٣١) محمد بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي، مرجع سابق، ص. 126.

(٣٢) مارمول كاربخال، مصدر سابق، ص. ٢٤٢.

(٣٣) محمد بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي، مرجع سابق، ص. ١٢٥.

(٣٤) لمعرفة كل الآراء المختلفة حول مسألة تنازل السلطان الغالب عن جزيرة بادس، انظر: عمر اشهبار، **المسار الاستعماري لجزيرتي بادس والنكور خلال العصر الحديث (١٥٠٨ – ١٨٢٢م)**، تقديم مصطفى المشيش العلمي، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات مؤسسة سيدي مشيش العلمي، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١٥، ص. ١٦٢ – ١٦٧.

(٣٥) جاء في مخطوط **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، ما يلي: "وأخذ مولاي عبد الله في ترتيب الجيوش والذخائر والعدة وعمارة الأهرية وخزاين البارود، وذلك خوفا من إخوته أن يأتوه من الجزائر بمحلة الترك، وكانت عمارة أهل

الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسى بادس (...) ولا ينقطع الترك عنها في كل أوان، فاهتم بذلك مولاي عبد الله وقنط وخاف أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد إلى المغرب فكتب إلى سلطان النصارى واتفق معه أن يخلي له الإدالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنقطع مادة الترك، فأتت النصارى بالعمارة إلى الحجر ونزل المسلون (منها) وسكنها النصارى برأي السلطان الفاسد".
مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، منشورات عيون المقالات، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، مراكش، ١٩٩٤، ص. ٣٩.

(٣٦) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، مرجع سابق، ص.٩١.

(٣٧) حليمة فرحات، مرجع سابق، ص. ٩٦٨.

(38) Juan Antonio de Estrada, **Poblacion General de España**, Vol 3, Madrid, 1747, p. 547.

(٣٩) محمد بن العياشي المكناسي، **زهر البستان في نسب أخوال سيدنا ومولانا زيدان**، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم ١٢١١٩، ص. ٢٨-٢٩.

(٤٠) نفسه.

(41) TOMAS Garcia Figueras, **Diario del sitio del** Peñón de Vélez de la Gomera desde 20 de Enero de este presente año de 1775, Mauritania, Julio, 1940, p. 217 a 219; 252 a 254 y 289 a 294.

(42) **Bacaicoa Arnais DORA,** El Peñon de Velez de la Gomera en 1791**, Tamuda, Septembre, 1950.**

(43) DE **MORALES** Gabriel y otros, «El Peñón de Vélez hasta 1921 **»**, **El Peñón de Vélez de la Gomera: Historia cultura y sociedad en la Espana Norte Africana**, Direccion a cargo de Antonio Bravo Nieto y Juan Antonio Bellver Garrido, Edicion al cuidado del Instituto de Cultura Mediterranea, Espana, 2008, P. 379

(44) **Baltasar** de Callazos y Chantal de la Veronne**,** « Sancho de leiva y el intento de conquiesta de 1663 **»**, **El Peñón de Vélez de la Gomera, Historia, cultura y sociedad en la Espana norte Africana, Op.cit**, p. 130.

(45) Baltasar de Callazos y Chantal de la Veronne **,** «Sancho de leiva y el intento de conquiesta de 1663»**, Op.cit**, p. 109.